المحاضرة : (الرابعة)

(دراسات في المصادر والمناهج)

(المبحث الأول)

(نشأت الدراسات الصوتية العربية وتطورها)

يرتبط ظهور الدرس الصوتي العربي بنشأة الدراسات اللغوية العربية ، التي يمكن أن يُؤَرَّخَ لبدئها بنزول القرآن الكريم وتدوينه ، ثم تلاوته وتعليم قراءته ، وإذا كانت الملاحظات اللغوية الأولى قد صدرت من عدد أُولي الأمر والعلماء من الصحابة والتابعين بصورة شفهية فإن الجهد اللغوي المُنظم بدأ بالأوراق الأربع التي ذكر ابن النديم أنه شاهدها بخط يحيى بن يَعْمَرَ عن أبي الأسود الدُّؤَلِيِّ ، فيها كلامٌ عن الفاعل والمفعول. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها ، حتى انتهى ذلك الجهد بظهور الكتب الجامعة التي تضم ألفاظ اللغة ، على نحو ما نجد في المعجمات كـ((العين))للخليل ، أو تعرض قواعد اللغة على نحو ما نجد في كتاب سيبويه وغيره من كتب النوحيين واللغويين .

وكانت بواكير الدرس الصوتي العربي قد جاءت مختلطة بالدراسات اللغوية والنحوية الأولى ، فنجد في مقدمة معجم العين ملاحظات عن أصوات العربية ، كما تضمن كتاب سيبويه مباحث مهمة عن أصوات العربية خاصة في باب الإدغام وباب الوقف . ولا يكاد يخلو بعد ذلك كتاب قديم من الكتب المؤلفة في النحو أو الصرف من مباحث صوتية ، على نحو ما يتضح من قائمة مصادر الدرس الصوتي العربي في المبحث الثاني من هذا الفصل . والذي نريد أن نؤكده ونحن بصدد البحث في نشأة الدراسات الصوتية العربية وتتبع مراحل تطورها ، مما لا يتضح من مجرد النظر في قائمة المصادر المشار إليها ، هو أن المباحث الصوتية العربية قد تطورت في القرن الرابع والخامس للهجرة إلى علم مستقل ، كما يبدو ذلك عند ابن جني في كتابه ((سر صناعة الإعراب))، حيث قال في مقدمته: ((رسمتَ .أطال الله بقاءك ... أن أضع كتاباً يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم ، وأحوال كل حرف منها ، وكيف مواقعه في كلام العرب)) ، ثم قال: ((وسَأَتَجَشَّمُ لطاعتك المَضَضَ ، بانكشاف أسرار هذا العلم)). وبَيَّن ابن جني ما يريده بقوله(هذا العلم) حين قال: ((ولكن هذا القبيل من هذا العلم ،أعني علم الأصوات والحروف)). ولا يقلل من شأن كتاب ((سر صناعة الإعراب))في ميدان الدرس الصوتي العربي ما ورد فيه من مباحث صرفية ولغوية أخرى . ويظهر استقلال هذا العلم بصورة أكثر جلاء لدى علماء التجويد ، الذين خصصوا للمباحث الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم كتباً مستقلة عن كتب القراءات ، وأطلقوا عليها اسم علم التجويد ، وكان بدء ذلك في القرن الرابع الهجري على يد ابي مزاحم الخاقاني الذي نظم قصيدة في حسن أداء القرآن ، قال عنها ابن الجزري : إنها أول مصنف في علم التجويد ، على نحو ما سنذكر في مصادر الدراسة الصوتية في المبحث الآتي . وتُبَيِّنُ الكتبُ المؤلفة في علم التجويد في القرن الخامس التي وصلت إلينا اكتمال صورة هذا العلم وشمول مباحثه دراسة أصوات اللغة من جميع الوجوه . وكان الحسن بن القاسم المرادي قد لخص مباحث علم التجويد بقوله: ((إن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور :

أحدها: معرفة مخارج الحروف .

والثاني : معرفة صفاتها .

والثالث: معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام .

والرابع: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار)).

ولا يكاد كتاب من كتب علم التجويد يخلو من الأمور الثلاثة الأولى : المخارج ،والصفات ، وأحكام التركيب . وهي الموضوعات الرئيسة في أصوات العربية ، قديماً وحديثاً ، أما الأمر الرابع فإنه ذو جانب عملي يتعلق بالتلقي من المعلم وتمرين اللسان على النطق الصحيح .

وظلت المباحث الصوتية تحتل مكانة بارزة في كتب النحو وكتب الصرف إلى عصور متأخرة ، أما في كتب علم التجويد فإن الاهتمام بها قد استمر على نحو واضح ، لا سيما في شروح ((المقدمة الجزرية)) لأبي الخير محمد بن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ ، وعلى يد عدد من العلماء المتأخرين الذين عُنُوا بتعليم قراءة القرآن الكريم ، مثل محمد المرعشي الملقب ساجقلي زاده ، المتوفى سنة ١١٥٠هـ =١٧٣٧م ، الذي ألَّفَ كتابه ((جهد المقل)) وشَرَحَهُ بكتابه((بيان جهد المُقل)) في علم التجويد. وقد تضمن هذا الكتاب وشرحه دراسة عميقة وواسعة لأصوات العربية ، تلتقي مع كثير من الحقائق الصوتية التي أثبتتها الدراسات المعاصرة .

ومن المناسب أن نذكِّرَ القارىء أن الدراسات الصوتية العربية نشأت نشأة أصيلة ، وتطورت تطوراً ذاتياً ، استجابة لحاجة الناطقين بالعربية والدارسين قواعدها ، وقطعت في ذلك شوطاً بعيداً ، وجاءت الدراسات الصوتية العربية الحديثة مؤسَّسَةً عليه ، ومُكَمِّلة له. ويعترف بعض المؤرخين لتأريخ الدراسة الصوتية اللغوية في العالم بسبق الدراسة الصوتية العربية غيرها في تثبيت حقائق هذه الدراسة على أسس علمية .وتتفاوت الكتب المؤلفة في علم أصوات العربية في العصر الحديث في مقدار اعتمادها على مصادر الدراسة الصوتية العربية القديمة ،فمنها ما يحس القارىء فيه أنه ترجمة حرفية من كتب علم الأصوات الغربية ، ومنها ما خلط بين المصادر القديمة والمصادر الحديثة ، لكن أكثر المؤلفين يعطون مصادر الدرس الصوتي الغربي مساحة أكبر في كتبهم ، والخير في الاعتدال وتحري الحقيقة ، فما دامت الحقيقة في كتب الدراسة الصوتية العربية القديمة فالأَوْلى الرجوع إليها ، وإلاَّ فالحكمةُ ضالة المؤمن !

(المبحث الثاني)

(مصادر الدرس الصوتي العربي)

حظيت أصوات العربية بعناية طوائف من العلماء والباحثين ، منذ عصر تدوين علوم العربية في القرن الثاني الهجري حتى عصرنا ، فقد تناولها بالبحث علماء العربية من نحاة ولغويين ، كما تناولها علماء قراءة القرآن ، وجعلوا من دراسة أصوات العربية وظواهرها في قراءة القرآن علماً مستقلاً سُمِّيَ علم التجويد ، ونشطت دراسة أصوات العربية في عصرنا على أيدي المستشرقين أولاً ، ثم على يد الباحثين العرب بعد ذلك . وكانت حصيلة ذلك كله عشرات الكتب والبحوث التي أغنت علم أصوات العربية .

وهذه إشارة إلى أهم تلك الكتب والبحوث

أولًا : كتب علماء العربية :

١.مقدمة معجم ((العين))، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ).

٢.باب الإدغام من ((كتاب سيبويه)) (أبي بشر عمرو بن عثمان ت ١٨٠هـ). ومواضع أخرى من الكتاب .

٣.أبواب الإدغام من كتاب ((المقتضب)) للمبرد (أبي العباس محمد بن يزيد ت٢٨٥هـ).

٤.باب الإدغام من كتاب ((الأصول)) لابن السراج(أبي بكر محمد بن السري ت٣١٦هـ).

٥.كتاب ((سر صناعة الإعراب)) لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، وفي كتابه ((الخصائص)) عدة أبواب عن الحركات وحروف المد .

٦.باب الإدغام من كتاب ((المفصل في علم العربية))للزمخشري (أبي القاسم محمود بن عمر جار الله ت ٥٣٨هـ)، وشروحه ، مثل((شرح ابن يعيش)) (يعيش بن علي ت٤٦٣ هـ) ،((وشرح ابن حاجب)) (أبي عمرو عثمان بن عمر ت ٦٤٦هـ).

٧-باب الإدغام من((الشافية في الصرف))لابن الحاجب(ت٦٤٦ هـ)وشرحها مثل((شرح الاستراباذي)) (رضي الدين محمد بن الحسن ت٦٨٦هـ)

٨- هناك عدد من كتب العلماء العربية تضمن فصلاً أو باباً صغيراً عن مخارج حروف العربية وصفاتها وما يتعلق بإدغامها ، منها ((كتاب الجمل))للزجاجي (أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٤٠هـ) ،وكتاب((الواضح في علم العربية))للزبيدي (أبي بكر محمد بن حسن ت٣٧٩هـ)، وكتاب ((المقرب))لابن عصفور ((علي بن مؤمن ت٦٦٩هـ)، وكتاب ((ارتشاف الضَّرَبِ))لأبي حيان الأندلسي (محمد بن يوسف ت٧٤٥هـ) ، وكتاب ((همع الهوامع)) للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ).

ثانياً : كتب علم التجويد :

استقلت المباحث الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم بكتب خاصة بها منذ القرن الرابع الهجري ، بعد أن كانت مختلطة بكتب علماء العربية وكتب القراءات القرآنية ، وصارت تعرف بعلم التجويد . وذكر ابن الجزري أن قصيدة أبي مزاحم الخاقاني البغدادي (موسى بن عبيد الله ت ٣٢٥هـ) . التي قالها في حُسْنِ أداء القرآن ، هي أول مُصَنَّفٍ في علم التجويد .

وكثرت المؤلفات في هذا العلم بعد القرن الرابع ، ولم ينقطع التأليف فيه إلى زماننا ، ومؤلفاته تتنوع طولاً وقصراً ، نظماً ونثراً ، وهي مصدر غني وأصيل للدراسات الصوتية العربية ، ولا غنى لدارس العربية عنها ، ومن أشهرها في عصرنا :

١.((الرعاية لتجويد القراءة))، لمكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) .

٢.((التحديد في الإتقان والتجويد))، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ) .

٣.((الموضح في التجويد))، لعبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب القرطبي (ت٤٦١هـ).

٤.((نهاية الإتقان في تجويد القرآن)) لشريح بن محمد الرعيني (ت٥٣٩هـ) .

٥.((التجريد في التجويد)) ، لسهل بن محمد الحاجي (ت٥٤٣هـ).

٦.((التمهيد في معرفة التجويد))، لأبي العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذاني (ت٥٦٩هـ) .

٧.((التمهيد في علم التجويد))، لابن الجزري (ت٨٣٣هـ) .

والقائمة تطول ، ويمكن الاطلاع على أسماء أشهر تلك الكتب في كتاب ((الدراسات الصوتية عند علماء التجويد)) .

ثالثاً : كتب علم الأصوات الحديثة :

تقدمت الدراسات الصوتية اللغوية في عصرنا تقدماً كبيراً ، وكان الباحثون الغربيون أسبق من غيرهم في خوض غمار تلك المباحث في هذا العصر ، فتعددت مناهج دراسة علم الأصوات ، وتنوعت موضوعاته ، وقد أمد التقدم الصناعي في بلدان الغرب الباحثين بوسائل وآلات جديدة ساعدتهم كثيراً في دراساتهم . وعادت الحياة إلى الدراسات الصوتية العربية من جديد ، بعد رقدة استمرت سنين كثيرة ، وأسهم فيها رافدان كبيران ، هما: الدراسات الصوتية العربية القديمة عند علماء العربية وعلماء التجويد ، والدراسات الصوتية لدى الغربيين على يد عدد من المستشرقين وعدد من الباحثين العرب الذين درسوا في جامعات الغرب فاطلعوا على مصادر هذا العلم وترجموا أو نقلوا كثيراً من موضوعاته إلى العربية .

وكانت من نتيجة ذلك ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة في هذا العلم ، وهي متعددة المناهج ، ومتنوعة الموضوعات ، منها المترجم ، ومنها المؤلف ، منها ما ينحو منحى الدراسات القديمة ، ومنها ما ينسج على منوال الدراسات الحديثة ، ومنها ما يجمع بين القديم والحديث ، ودارس الأصوات به حاجة إلى الاطلاع على تلك الدراسات .

وأهم ما وقفت عليه من أسماء الكتب العربية المؤلفة في علم الأصوات اللغوية في العصر الحديث ، ما يأتي ، مرتبة حسب تأريخ صدورها :

١.((الأصوات اللغوية))، للدكتور إبراهيم أنيس ١٩٤٧ ، وظهرت له طبعات أخرى.

٢.((مناهج البحث في اللغة))، للدكتور تمام حسان ١٩٥٥م ، قسم الدراسة الصوتية (ص٥٩-١٧٠).

٣.((علم اللغة مقدمة للقارىء العربي))للدكتور محمود السعران ١٩٦٢م ، الباب الثاني في الأصوات .

٤.((أصوات اللغة))، للدكتور عبد الرحمن أيوب ١٩٦٣م .

٥.((علم اللغة العام)) (قسم الأصوات) ، للدكتور كمال محمد بشر ١٩٦٩م.

٦.((دراسة الصوت اللغوي)) للدكتور أحمد مختار عمر ١٩٧٦م.

٧.((دراسة السمع والكلام))، للدكتور سعد عبد العزيز مصلوح ١٩٨٠م.

٨.((المدخل إلى علم الأصوات))، للدكتور صلاح الدين حسنين ١٩٨١م.

٩.((أصوات اللغة العربية)) ، للدكتور محمد حسن جبل ١٩٨٢م.

١٠.((في البحث الصوتي عند العرب))، للدكتور خليل إبراهيم العطية ١٩٨٣م.

١١.((الكلام إنتاجه وتحليله))، للدكتور عبد الرحمن أيوب ١٩٨٤م.

١٢.((في الأصوات اللغوية : دراسة في أصوات المد العربية)) ، للدكتور غالب فاضل المطلبي ١٩٨٤م.

١٣.((الأصوات العربية))، للدكتور محمد علي الخولي ١٩٨٧م.

١٤.((علم الأصوات العام : أصوات اللغة العربية)) ، لبسام بركة ١٩٨٨م.

١٥.((المصطلح الصوتي في الدراسات العربية))، لعبد العزيز سعيد أحمد الصيغ ،(رسالة ماجستير . جامعة بغداد)، ١٩٨٨م ، [طبع دار الفكر بدمشق ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م].

١٦.((علم اللغة المبرمج)) ، للدكتور كمال إبراهيم بدري ١٩٨٨م.

١٧.((في صوتيات اللغة العربية)) ، للدكتور محيي الدين رمضان ١٩٨٩م.

١٨.((أصوات العربية بين التحول والثبات ، للدكتور حسام سعيد النعيمي ١٩٨٩م.

١٩.((علم وظائف الأصوات)) (الفوتنيكا)، للدكتور عصام نور الدين ١٩٩٢م.

٢٠.((علم وظائف الأصوات))، (الفونولوجيا)، للدكتور عصام نور الدين ١٩٩٢م.

٢١.((المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء)) ، للدكتور عبد القادر مرعي العلي الخليل ١٩٩٣م.

ومن الدراسات المتعلقة بعلم الأصوات اللغوية مما كتبه المستشرقون أو مما ترجم عن اللغات الأوروبية ما يأتي :

١.((التطور النحوي للغة العربية))، للمستشرق الألماني برجشتراسر ، محاضرات ألقاها سنة١٩٢٩م ، وأعاد نشرها د. رمضان عبد التواب ١٩٨٢م.

٢.((علم الأصوات عند سيبويه وعندنا)) ، للمستشرق الألماني أرتور شاده ١٩٣١م ، وأعاد نشره د. صبيح التميمي ٢٠٠٠م.

٣.((دروس في علم أصوات العربية)) ، لإرنست بولجرام ، ترجمة الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح ١٩٧٧م.

٤.((التشكيل الصوتي في اللغة العربية))(فونولوجيا العربية) ، لسلمان حسن العاني ، ترجمة الدكتور ياسر الملاح ١٩٨٣م.

٥.((علم الأصوات)) ، لبرتيل مالمبرج ، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ١٩٨٥م.

ولا يخفى على القارىء أن ما ورد من ذكر لمصادر الدراسة الصوتية العربية هنا وراء أبحاث وكتب أخرى فاتني الاطلاع عليها ، أو وردت في كتب علم اللغة العربية أو المجلات اللغوية ولم أجد ضرورة لتتبعها وسردها هنا ، لأني أردت أن أذكر أهم المصادر في هذا الباب من العلم اللغوي .